

ذَاتُ الصِّفَا

[من الطويل]

يعاتب النَّابِغَةُ بني مَرَّةَ على تحالفهم عليه وعلى قومه،
 خاصة ما كان بينه وبين يزيد بن سيار المري بسبب المحاش،
 ضارباً لهم مثل ذات الصِّفا أي الحيَّة، فقال:
 أَلَا أُبْلِغَا دُُبْيَانَ عَنِّي رِسَالَةً
 فَقَدْ أَصْبَحْتُ، عَنْ مَنَهِجِ الْحَقِّ، جَائِرُهُ
 أَجِدَّكُمْ لَنْ تَزْجُرُوا عَنْ ظِلَامَةٍ
 سَفِيهَاً، وَلَنْ تَزْعُوا لَذي الْوُدِّ أَصْرَهُ (١)
 فَلَوْ شَهِدْتُ سَهْمٌ وَأَبْنَاءُ مَالِكٍ
 فَتُعْذِرُنِي مِنْ مُرَّةِ الْمُتَنَاصِرَةِ (٢)
 لَجَاؤُوا بِجَمْعٍ، لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ
 تَضَاءُلُ مِنْهُ، بِالْعَشِيِّ، قِصَائِرُهُ (٣)
 لِيَهْنِئَ لَكُمْ أَنْ قَدْ نَفَيْتُمْ بُيُوتَنَا
 مُنْدَى عُبَيْدَانَ الْمُحَلِّيَّ بِاقِرِّهِ (٤)

(١) السَّفِيه: الجاهل. الآصرة: الرابطة أو العلاقة.

(٢) المعنى، لو شَهِدْتُ قبيلة سهم وأبناء مالك ما شَهِدْتُه من بني مرة، إذا عذرتني بسبب عتابي لهم.

(٣) الجمع: بمعنى الجيش. تضاءل: أي تتضاءل. القصائر: مفردا قصيرة، وتعني قليلة الطول، أو يمكن أن تعني إسم علم لموضع أو جبل. والعشي: وقت العشاء.

(٤) نفى: أبعد. بيوتنا: أهل قبيلتنا. المُنْدَى: الموضع الذي تورد فيه الإبل لتشرب قليلاً ثم تعيدها للرعي. عبيدان: اسم لرجل. المحلّي: المبعد عن الماء. الباقر: أي قطع البقر.

- وإني لألقى من ذوي الضُّعْنِ منهم
 وما أصبحت تشكو من الوجدِ ساهرة^(١)
 كما لقيت ذات الصِّفا من حليفها
 وما أنفكت الأمثال في الناس سائرة^(٢)
 فقالت له: أدعوك للعقل، وافيأ
 ولا تغشيتي منك بالظلمِ بادره^(٣)
 فوائتقها بالله، حين تراضيا
 فكانت تديه المال غباً، وظاهره^(٤)
 فلمّا توفى العقل، إلّا أقله
 وجارت به نفس، عن الحق جائرة^(٥)
 تذكّر أنّي يجعلُ اللهُ جنةً
 فيصبحَ ذا مالٍ، ويقتلَ واثره^(٦)
 فلمّا رأى أن ثمرَ الله ماله
 وأثّل موجداً، وسدّ مفارقة^(٧)

(١) الضُّعْن: الحقد. الوجد: شدة الحب.

(٢) ذات الصِّفا: كناية عن الحيّة، وحكايتها مع الأخوين واستحكام العداوة بينها وبين أحدهما بعد أن قتلت واحداً منهما.

(٣) العقل: أي الدّية.

(٤) غباً: أي يوماً بعد يوم. ظاهرة: أي عند منتصف النهار وهي بمعنى وقت الظهيرة.

(٥) توفى: بمعنى استوفى أي قبض. جائرة: ظالمة.

(٦) الجنة: السترة، من استتر. واثره: من الوثر أو الثأر والانتقام، أي من له عنده ثأر.

(٧) أثّل المال: زكّاه. المفارقة: مفردها فقّر، أي الحاجة وهي ضد الغنى.

أَكَبَّ عَلَى فَأْسٍ يُحِدُّ غُرَابَهَا
 مُذْكَرَةً، مِّنَ الْمَعَاوِلِ، بَاتِرَةً^(١)
 فَقَامَ لَهَا مِنْ فَوْقِ جُحْرٍ مُّشِيدٍ
 لِيَقْتُلَهَا، أَوْ تُخْطِئَ الْكَفُّ بَادِرَةً^(٢)
 فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَأَسِهُ
 وَلِلْبِرِّ عَيْنٌ لَا تُغْمِضُ نَاطِرَهُ
 فَقَالَ: تَعَالَيْ نَجْعَلِ اللَّهَ بَيْنَنَا
 عَلَى مَا لَنَا، أَوْ تُنْجِزِي لِي آخِرَهُ
 فَقَالَتْ: يَمِينُ اللَّهِ أَفْعَلُ، إِنَّنِي
 رَأَيْتُكَ مَسْحُورًا، يَمِينُكَ فَاجِرَةً^(٣)
 أَبَى لِي قَبْرٌ، لَا يَزَالُ مُقَابِلِي
 وَضَرْبُهُ فَأَسٍ، فَوْقَ رَأْسِي، فَاقِرَةً^(٤)



(١) الفأس: آلة حادة. يُحِدُّ: يشحذ. غرابها: حدّها. مذكرة: صارمة. باترة: قاطعة.

(٢) الجُحْر: مخبأ الحية. البادرة: ما يبدر عن المرء وقت الحدة.

(٣) يمين الله أفعَل: العبارة بمعنى النفي، وكثيراً ما تُحذف «لا» النافية بعد القسم، أي لا أفعَل.

(٤) أبى: امتنع ورفض. فاقرة: من فقر الشيء، أي حزّه وقطعه.